



بينما حسمت الثورة خياراتها منذ زمن بقي الجدل النظري حول طبيعتها قائماً حتى اليوم وفي خضمِه تُستحضر دراسات وإحصاءات لإثبات صحة الخيار السلمي الخالص، إلا أن من يدافعون عن ذلك الخيار يغفلون أو يتغافلون عن عامل يميز الثورة السورية عن النماذج المسؤولة للثورات السلمية، لا من ناحية إجرام النظام السوري كما يجاج البعض ولكن في أن أيّاً من تلك النماذج لم يحوِّل أقلية دينية أو إثنية ذات كتلة عدديّة مؤثرة متماهية مع السلطة الحاكمة ومدافعة عنها في وجه بقية الشعب ضمن نظام أمني متغول كما هو حال عموم الطائفة العلوية اليوم.

وإذا قبلنا بهذه الفرضية فإن الإحصاءات والأرقام تغدو غير ذات صلة بالقضية المطروحة.  
ومن ناحية منهجية لا يعني ذلك عدم صلاحية النموذج السلمي لسوريا وإنما عدم إمكانية الاحتجاج بأمثلته الناجحة في هذا النقاش.

إذا حاولنا تفكيك آليات النموذج السلمي بعيداً عن الرؤية الحاكمة سنجد أنها حققت نجاحاً باهراً في الحالة السورية والتهجم على العمل المدني لا يمكن وصفه إلا بأنه حماقة ثورية ونكران للتضحيات مئات الشهداء وألاف الناشطين في مراحل الثورة الأولى، فقد نجحت تلك الآليات في تفكيك تحالفات النظام والتوازنات التي بناها مع أغلب أطياف المجتمع وتمكنـت من كسب تعاطف السوريين وإبراز الصورة الحقيقية للثورة وقيمها بعيداً عن الدعاوى التي كان النظام يحاول إلصاقها بها، كما أنها تمكنت من إشراك جميع قطاعات المجتمع في الحراك الثوري، وهم الضامن الوحيد لحماية بوصلتها والحفاظ على مكتسباتها من طغيان أي فئة لاحقاً.

إلا أن تلك الآليات التي تعتمد على التداخل القائم بين المجتمع ومكونات الدولة وقفت عاجزة أمام الطائفة العلوية التي

تعيش حالة فصام تعاني فيها استعباد النظام لها بينما ترى نفسها مالكة البلاد وصاحبة السيادة عليها وترى الثورة خروجاً على سلطتها وهيمنتها، ولم تفلح تلك الآليات إلا في اجتذاب أعداد هامشية من ذوي الاستعداد المسبق لتجاوز الأطر الطائفية الضيقة.

وهكذا حافظ النظام على نواة صلبة ربطت مصيرها به وشكلت مع مجموعات مصلحية أخرى من بقية أطياف المجتمع السوري خط دفاع منيعاً يبدو من السذاجة الظن بأن اختراقه ممكن بالاستسلام للذبح ونداءات الأخوة والأخلاق. الحل السلمي الحالص كان يعني ببساطة - وفيما يبدو أقرب التصورات إلى التحقق - امتداد الثورة إلى أغلبية المجتمع السوري ثم موتها ببطء، وحماة تمكنا نافذة لاستشراف حال الثورة لو لم يتم حمل السلاح.

ففي بدايات الثورة ومع المظاهرات الهائلة التي عممت المدينة خرج أغلب سكانها من الطائفة إلى الريف لكنهم عادوا مع الهجمة الغاشمة التي شنت عليها ولم يكتفُ أكثرهم بالعودة بل تجاوزوا إلى طرد بعض الأهالي من دورهم والاستيلاء عليها كغنائم وشنّت حملة أمنية عنيفة اعتقل فيها الناشطون وقمع الأهالي وكانت مظاهر الثورة تخفي إلا من مظاهرة طيارة هنا أو هجمة محدودة للجيش الحر هناك، وبلغت صعوبة الحال مبلغاً وصفه صالح الحموي قبل أيام في نداء للمغربين بقوله: ((اليوم الحواجز بحماية عم ياخدوا إتاوات من الناس ع طالع والنازل.. وصار ولاد الخلق والعالم تشخدع أبواب المساجد.. الفقر يأكل الناس"، وكل ذلك تم بكلفة أمنية محدودة)).

و هنا تفريق دقيق جداً لا ينبغي تجاوزه، فالتفاف الطائفة حول النظام يجعل إسقاطه متعدراً بالأساليب السلمية وحدها لكنه لا يجوز أن يقود إلى نقل وجة المعركة من النظام إلى الطائفة، على الأقل لدى من يؤمن بأن الثورة قامت لإنقاذ الإنسان وبناء وطن كريم. الحالة العلوية على درجة عالية من التركيب وفهمها يقود لقناعة بأن التعايش وخروج الطائفة من ضيق سجنها إلى رحابة الوطن ممكن وضروري لكن تحقيقه مشروط بإسقاط النظام ولا طاقة للثورة بإنجازه قبل ذلك وخاصة مع مستوى العنف الذي ووجهت به منذ انطلاقتها.<sup>1</sup>

لو استمرت الثورة على سليمتها لربما بلغت دمشق وحلب بعد حين وتمكنت حتى من تحقيق انتصارات جزئية من إضراب وعصيان مدني.. كان النظام سيعرف بخسارة المعركة.. لكن الحرب ستستمر.

كان سيتم غض النظر عن القرى والمناطق الطرفية بعد تقطيع أوصالها ويعاد انتشار الجيش في المدن الرئيسية وعلى الحدود، الشمال والشرق سيوزع بين عصابة آل بري وحزب العمال الكردستاني والعشائر المتعاونة مع النظام، مع دعم أمريكي محدود، في حين يترك الساحل لشبيحة القرى، سيتم تهجير أهل حمص، وتقطيع أوصال دمشق، وخلق أشكال التظاهر والعمل المدني قدر المستطاع، بينما تنسحب الدولة من مسؤولياتها في عملية عقابية وتحصر اهتمامها بالأحياء والمناطق المؤيدة.

العامل الفارق هنا هو أن تركز الطائفة في الأجهزة الأمنية وأجهزة الدولة سيضمن مع المنتفعين من بقية الطوائف استمرارها ولو بشكل جزئي، خاصة وقد تختلفت من حمل القطاع الأكبر من الشعب، وستترك دمشق وبقية المدن الرئيسية لتذبل تدريجياً فيما يليه اقتصادها ويعتقل نشطاً لها وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة، ستضمن روسيا والصين الدعم السياسي للنظام طالما بقي عدد القتلى اليومي دون مستوى معين في حين توفر إيران وحلفاؤها الدعم العسكري والمالي، وإن تعسر الأمور فأيدي الشبيحة مطلقة في نهب الدور والمتجاجر واحتطاف المدنيين والمساومة عليهم، وستعم "أسواق السنة" الشطر الغربي من البلاد، سخسر نفس عدد الشهداء وربما أكثر لكنهم سيكونون ضحية إعدامات جماعية منتظمة وغير معلنة في المعتقلات، تماماً كإعدامات تدمر، ستُدَبِّجُ البيانات، وتتالي الإدانات، وربما يمنع الكافيار، لكن أحداً لن يحرك حبراً ما دام العرب سيَدِفِنُون قطار الثورات المرعب والغرب سيفحظى بسورية أضعف وواعد بحماية إسرائيل.

بعد عامين أو أكثر قليلا سيلتفت الناس ليجدوا أنفسهم يعيشون حالاً أمن من أهل العراق حين كانوا بين مطرقة الطاغية وسندان الحصار، النظام مستمر ككائن استعماري طفيلي بينما هم لا يجدون لا المأكل ولا المشرب ولا الدواء، ولا يأمنون على أنفسهم إن ناموا ألا يستيقظوا في أحد المعتقلات، سيفقدون الأمل، سيكفرون بكل دعاء العصيان والكافح السلمي.. سيلعنون من ورطهم في هذه المغامرة المجنونة.. وسيستسلمون.. لا في قرار جماعي بالضرورة، لكن على دفعات متتالية، سيضرب النظام حينها ضربته النهائية في المدن ليضمن اجتثاث كل من قد يفكر في التمرد لاحقاً ثم سيفرغ لبقية المناطق، تلك المناطق التي غرها ما ظنته من ضعف فتمرت وربما كانت إدارات ذاتية خاصة بها، سيفرغ لها بعد أن رأت ما حل بأخواتها الأكبر وبعد أن عانت ولو جزئيا تخل الدولة وموت الاقتصاد، وسيحل بها ما حل بغيرها، سيعيش الناس أعواما من الرعب لم يعرفوا مثيلها حتى في أيام الأسد الأب، وسيفر مئات الآلاف هرباً من المصير المحتمم،

سيصحو البوطي يوماً ليقول للناس أنه رأى النبي في المنام، جالساً في الفردوس بين باسل وأبيه، أنه رضي صنيع بشار وصموده في وجه أعداء الأمة والإنسانية وأنه.. المهدى المنتظر، سيزعم أنه أوصاه بأن يُنصب ملكاً وتغدو البلاد إرثاً لذريته المباركة، ستصبح سورياً مملكة الأسد، ولن تعرف ثورةً أو صوت معارضة إلا بعد قرن من زمان، حين يخرج بوعزيزي جديد في جبل لم يعرف الرعب الذي نزل بأجاداته.. كل ذلك لأن الناس توهمت أنها أمام دولة، لا عصابة قذرة تدعيمها دول وطائفة ومجموعات نفعية عده.

قبل سنة تقريباً كتبت أن من لا يرى يد الله في الثورات العربية عموماً والسويدية خصوصاً فليسعد به من عمى البصيرة، هذه الثورة ثورة مأمورة، تسير بهدي الله، جاءت ثورتاً تونس ومصر لتشعل فتيلها وتمتحا الناس الأمل في تحقيق المستحيل، ثم ضربت ثورة اليمن المثل في ضبط النفس وتحييد السلاح، ولعبت ثورة ليبيا دوراً ثانائياً عجيباً، فعلى مدى أشهر كبح حجم خسائرها لجام العسكرية في سوريا وأعطى فرصة لتمكن العمل المدني وانتشاره، وحين انتصرت كانت إذاناً ببدء مرحلة جديدة في حياة الثورة السورية بات فيها السلاح جزءاً أساسياً في المعادلة.

في الطريق ارتكبت أخطاء كثيرة على مختلف الصعد، المدني منها والعسكري والسياسي، وبعضها كان كارثياً وعاد بخسائر فادحة، لكن عظمة الثورة كانت في مجالها المفتوح وдинاميتها التي استوّعت الصدمات المتتالية وتفاعلـت معها لتأقلم مع الواقع المتغير باستمرار وتبدع آليات ووسائل جديدة في مواجهتها.

هذه ثورة تأبـي القولبة والأطر الجاهزة، وترفض الكسل الفكري الذي يصر على حصرها تحت أحد العناوين المتعارف عليهـا، هي ثورة تكاملية، تعـيد بناء مفهوم الثورات وتقـيم جسوراً بين آلياتها، وتـبدع توازناتها الخاصة بين تلك الآليـات بحيث لا يطفـي منها شيء على آخر وتمضـي كلـها في تنـاغم بـديع نحو النـصر والـحرية. هي وردة تـفتح أوراقـها لترسم لوحة بـديعة تـسرـ النـاظـرين، وجـنـينـ يـتـخلقـ فيـ رـحـمـ التـارـيخـ، يـتـحـولـ خـلـقاـ منـ بـعـدـ خـلـقـ، فيـ جـيـنـاتـهـ رـسـمـتـ مـلامـحـ صـورـتـهـ الجـمـيلـةـ، لـكـ منـ اـكـتـفـيـ بـمـشـهـدـ سـطـحـيـ يـعـودـ بـعـدـ مـدـةـ لـيـنـكـرـ ماـ يـرـىـ وـيـزـعـمـ أـنـ ذـلـكـ الجـنـينـ الـذـيـ يـعـرـفـ قـدـ ضـاعـ وـضـلـ السـبـيلـ، أـوـ أـنـهـ مـاتـ بلاـ عـودـةـ، بـيـنـماـ هوـ هوـ، لـمـ يـزـدـدـ إـلـاـ بـهـاءـ وـنـضـجاـ وـقـوـةـ..

الثورة اليوم بحاجة لرؤية منفتحة تخرج بها من حالة التآزم ومناكفات الرؤى الحدية نحو أفق أوسع تتكامل فيه العناصر ولا تتنافـرـ، يـتـفـاعـلـ معـ الـوـاقـعـ ضـمـنـ إـطـارـ حـاـكـمـ مـنـ الـقـيـمـ وـالـأـخـلـاقـ، يـبـقـيـ فـيـ السـلـاحـ أـداـةـ لـاـ هـدـفـ، وـالـحـرـاكـ المـدـنـيـ الأـصـلـ وـالـمـوـجـهـ وـالـضـابـطـ، وـيـظـلـ مـسـاحـةـ حـرـةـ لـلـنـقـاشـ وـالـتـفـكـرـ فـيـ الـحـلـولـ وـالـآـلـيـاتـ، أـفـقـ يـسـتـشـرـفـ الـمـسـتـقـبـلـ وـعـيـنـهـ دـوـمـاـ عـلـىـ إـلـيـانـ..

ثـورـةـ الشـامـ ثـورـةـ قدـ تـكـفـلـ اللـهـ بـمـسـارـهـ، وـعـهـدـ إـلـيـنـاـ بـالـتـفـاصـيلـ، لـنـخـطـئـ وـنـتـعـلـمـ وـنـبـدـعـ، لـنـعـيـدـ اـكـتـشـافـ أـنـفـسـنـاـ، لـنـعـودـ كـمـاـ أـرـادـ اللـهـ.. أـمـةـ الـوـسـطـيـةـ وـالـشـهـوـدـ..

وفي التفاصيل يتحدد الشكل النهائي للمشهد.. فهل تكون على قدر الأمانة؟

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُوهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِلَيْنَا سَبَقَ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً)

المصادر: